رحلة الى الشام

(٢)

ركبنا القطار من حيفا الى عكاء واخط بينهما جزء من سكة حديد الحجاز ومكثنا بها ثلاثة ايام شاهدنا فيها سورها المشهور وهو سلسلة من القلاع في ثلاثة صفوف كلّ صف فيها يحيط به خندق فاذا شعر قائد حامية المدينة بقدوم عدوّ اطلق مياه بحر الروم فتملأ الخنادق وتمسي المدينة مثل جزيرة

وهي اقذر مدن سورية وفيها قال العامة في امثالهم « بعدك بتقول عكا وخه » ويقطنها عباس افندي خليفه بهاء الله صاحب الطريقة المشهورة باسمه اي البهائية ويسمى اتباعها البابيين نسبة الى الباب الايراني مبدعها الاول . وفي البهجة بجوار عكاء قبر بهاء الله يحجّ اتباعهُ من بلاد ايران وغيرها . وقد اطلعت على كتاب عقيدتهم فاذا هو يحتوي على العقائد المسيحية والاسلامية . واخصّ ما فيه الامر بالمحبة اذ يقول ان المحبة اصل كل شيء . وسألنا بعض المسلمين من سكان عكاء عن البابيين ومعاملتهم لهم فاثنوا عليهم ثناء طيباً وقالوا اننا لم نرَ ولم نسمع بسارق منهم او لصّ . وقد زرت بهاء الله قبل وفاته فلم يسمح لي برؤيته لانهُ كان يكلم الناس من وراء ستار . اما عباس افندي خليفتهُ فيقابل من شاء مقابلتهُ ويبالغ في التلطف والتجمل وهو غاية في الوداعة وعلوّ الهمة . ولست اعلم هل يعتقد اصحاب هذه الطريقة ان كتابهم منزل . وكلّ ما اعلمهُ ان علماء الاسلام انتقدوا لغتهُ وابانوا كثرة مواطن الضعف فيها

ومما اعجبني في عكاء المحطة البديعة التي بناها الترك لسكة حديد الحجاز وسراي الحكومة عند شاطىء البحر وهي قصر جميل زرت فيه الحاكم العسكري وهو اول انرنجي حكم في عكاء بعد الصليبيين

ومن آثار هذه البلدة جامع احمد باشا الجزار الذي استقل بالحكم على جميع الاقليم التابع لعكاء منذ اكثر من قرن وظلم الناس حتى ضربت الامثال بظلمه ومات عن غير وارث فوقف على الجامع المذكور منازل ودكاكين كثيرة وفرض لنفسه أذاناً في وقت غير الاوقات المعروفة في الشريعة الاسلامية اي نحو الساعة

١١ زوالية . والمؤذن يتلو حينئذ دعاء خاصاً من اجل ذنوب احمد باشا الجزار

وفي هذا الجامع مزولة دقيقة راقبت الظل فيها عند الظهر فكان مطابقاً الوقت في الساعة العادية . وفيه بضعة اعمدة من الغرانيت جاء بها الجزّار من معابد اليهود والمسيحيين وهؤلاء جاؤوا بها من معابد الامم الذين سكنوا هذه الارض قبلهم . وفي الاصل جيء بها من اسوان

وفي اليوم الرابع من اغسطس برحنا عكاء شمالاً فقطعنا سهلها الكبير وفيه القرى العامرة والبساتين الجميلة . ثم بلغنا مكاناً اسمهُ الناقورة وهو تلّ صخري مجوف على شاطىء البحر تدخل مياه البحر تجويفهُ عند المدّ فيخرج الهواء منهُ بقوة فيحدث من ذلك صوت شبيه بصوت الرعد يسمع عن بعد اميال كثيرة. وفي عهد الحكومة الماضية كانت هذه المنطقة مكمناً لقطاع الطرق وكان المسافرون يخشون المرور فيها ليلاً

وعند هذا الحد تنتهي متصرفية عكاء ويبتدىء قضاء صور بلاد بشارة التابعة لهُ . ومعظم اهل بلاد بشارة واهل بلاد الشقيف التابعة لقضاء صيداء من المتاولة (الشيعة) وقد ذاقوا المرّ في حكم الترك ايام الحرب ومات كثيرون منهم جوعاً لان الحكومة اخذت الحبوب من بلادهم طعاماً لجيشها وافقرتهم بطريقة شيطانية اذ جمعت نقود الذهب واعطتهم بدلاً منها نقود الورق ثم هبطت اسعار هذه فصار الجنيه عشرين غرشاً وارتفعت اسعار الحنطة فصارت اقة الدقيق بريال اي جنيه . والذي زاد المصاب مصاباً ان رؤساء الحكومة اتفقوا مع اغنياء البلاد واحتكروا الغلة وعدموا كل شفقة ومروءة فاضطر الفقراء ان يأكلوا ما تأكل كلاب الازقة حتى اذا عدموا هذا جعلوا يمكسون الرمق باكل قشر البرتقال وعشب الحقل حتى ماتوا جوعاً في الازقة

قيل ان جمال باشا زار عكاء ذات يوم فقابلهُ اهلها وقد عضّهم الجوع فقالوا جمنا يا باشا فاجابهم متى صارت الامُ تأكل ابنها فحينئذٍ تكونون قد جعتم . وقد تم تشاؤم هذا الطاغية فان بعض الجياع اصابتهم نوبة وقتية من الجنون فاكلوا اولادهم عن شدة الجوع

وبعد خروجنا من الناقورة مررنا بعين اسكندرونة المشهورة بعذوبة مائها ثم قصدنا مدينة صور القديمة وهي مدينة صغيرة كانت هي وصيداء التي الى

الشمال منها اعظم مدائن الفينيقيين قدماً واشتهرت صور بحصار الاسكندر لها . ثم مررنا بصرفند وهذه الجهة مشهورة بالتين الابيض وينبت في جبالها برّيًا والمرجح ان هذه البقعة وطنهُ الاصلي وهو اجود التين في العالم كلهِ يجفف في الشمس كما يجفف البلح ويكبس في زنابيل ويرسل الى جميع البلاد. وهذا النوع من التين عظيم النفع في النزلات المعوية المزمنة والامساك المستعصي وكان القدماء يعالجون بمطبوخهِ الامراض الصدرية . واسترحنا زمناً في فندق قرب الصرفند واشترينا سلة من هذا التين فاذا هو احلى من الشهد

واستأنفنا المسير شمالاً حتى بلغنا ضواحي صيداء الجنوبية وفيها مغارة طبلون(١) مدافن ملوك صيدون القديمة .وهذه المغارة او المغاور كهوف واسعة منحوتة في صخور رملية وجدت فيها آثار فينيقية بديعة نقلت الى فرنسا والاستانة .منها صندوق اوناووس من المرمر وجدت فيهِ جثة محنطة على الطريقة المصرية . وقد تكون جثة ملك كان مصاهراً لفراعنة مصر فامرت زوجتهُ بان تحنط جثتهُ على حسب طريقة قومها في التحنيط

والى شرقي هذه المغاور قرية الميه وميه اشتراها المرسلون الاميركيون وسموها دار السلام وبنوا فيها داراً للايتام زرتها فاذا فيها مئات من الذين يتمتهم هذه الحرب وفيها اساتذة كرام يربون هؤلاء المساكين على الفضيلة ويعلمونهم العلوم الابتدائية وبعض الصناعات التي تنفعهم وتساعدهم على العيش

والداخل الى صيداء يجد في جنوبها تلاً من الصدف مشرفاً على البحر قيل ان الاقدمين كانوا يستخرجون من الحيوينات التي في صدفهِ صباغ الارجوان المشهور في التاريخ . وقيل ان الزجاج صنع في هذه المدينة لاول مرة

ومن آثارها القديمة الباقية الى الآن القناة المحفورة تحت جبل البرامية وفيها تجري مياه نهر الاولي الى المدينة . وبساتين هذه المدينة مشهورة باتساعها وتعدد فاكهتها وازهارها العطرية . ويكثر حولها نبات الصعتر يأتدم بهِ فلاحو هذه البلاد كما يأتدم فلاحو مصر بالكراث . وفي الصعتر زيت طيار مضاد لداء

(١) في هذه التسمية شيء من التحريف ناشيء عن الابطياء الاصل منارة البرون فقيل طبلون او طبلون باسقاط الف البرون ووصل تاء منارة بها . والمظنون على ما جاء في باذكار ان البرون هذا البرج هو ابرولو احد آلهة كنعان القدماء اذ وجد في هذه المغارة او المناور نقوش تحتمله (المقتطف)

الانكلستوما المصاب به نحو ٢٠ في المئة من فلاحي مصر ولا وجود له في تلك البلاد. فياحبذا لو عنيت وزارة الزراعة المصرية بزرعه في الحقول المصرية ليتنفع الفلاح المصري به في مقاومة هذا المرض الوبيل

ومن فاكهة صيداء المشهورة التين الاحمر المعروف باسم التين البقراطي ولعلهُ منسوب الى بقراط ابي الطب عند اليونان ادعاء انهُ ينفع آكلهُ ويفعل به فعل الدواء في الشفاء

وفي ١٣ اغسطس قصدنا بلدة معلقة الدامور المشهورة بسعة بساتين التوت فيها وتربية دود الحرير . وفيها عدة معامل لحل خيوط الحرير وتصديرها الى الخارج . وسمعنا ونحن فيها ان رجلاً ذبح غلاماً واكلهُ جوعاً ايام الحرب فقام الناس عليهِ وضربوهُ حتى مات

ومن معلقة الدامور قصدنا بيروت ثم ربوع لبنان فشاهدنا فيها آثار الظلم الماضي . وكان عدد سكان لبنان قبل الحرب نحو نصف مليون منهم نصفهم من الموارنة ومن هؤلاء ١٥ الف راهب ونحو ٦ آلاف راهبة .وقد سمعنا من اهل الجبل ان نحو نصف الموارنة ماتوا في الحرب من الجوع والامراض الناشئة عن سوء التغذية ولم نسمع ان راهباً واحداً مات بسبب من هذه الاسباب

وللموارنة تاريخ مجيد يبتدىء نحو القرن السابع للمسيح اذ ظهر راهب اسمهُ يوحنا مارون اشتهر بالزهد والنسك والذكاء فالتف حولهُ قوم من المسيحيين النازلين في شمال سورية بين لبنان وحلب .وفي ذلك الوقت ارسلت رومية دعاتها في الشرق يدعون اهلهُ الى حظيرة كنيستها فلبى القديس مارون الدعوة وكان من جملة الرؤساء الذين اعترفوا برياسة البابا فصارت الكنيسة المارونية في «طقوسها» على اثر الكنيسة اللاتينية ما عدا اللغة فانها لا تزال في الكنيسة المارونية واكثر طقوسها تقرأ بها

وقد ساعد الموارنة الصليبيين في الشرق ومات منهم نحو ١٢ الفاً في حروب الفرنسويين مع ملوك الشرق .ويظهر ان عددهم كان يزيد على ربع مليون حينئذٍ وهم ذوو بسالة ونجدة ساعدوا الجيش المصري برياسة الامير بشير الشهابي وهو يحارب الاتراك

وعلى ذكر لبنان اقول ان قربهُ من مصر وشهرتهُ بمائهِ العذب وهوائهِ

الصحيح واعتدال جوه وجمال مناظره الطبيعية تجعلهُ مطمح المصطافين من هذا القطر . وقد رأيت ان اذكر هنا بعض الامور التي تسهل الاصطياف فيهِ وترغب المصريين في قصده لقضاء اشهر الحرّ فيهِ من كل سنة واذكر كذلك بعض الامور التي تجب مراعاتها من هذا القبيل

يجب على حكومة الجبل بادئ بدء ان تؤلف لجنة طبية لمكافحة الناموس الذي يكثر في بعض جهات الجبل. ومكافحتهُ من الامور الهينة بعد ما عرف واشتهر ان النفاز الوسخ خير علاج لهُ بصبهِ على المياه الراكدة . وبهذه الطريقة البسيطة يمكن استئصال الملاريا والحمى المتقطعة

ويجب عليها ايضاً اعداد مباخر لتطهير الفنادق وسائر الاماكن التي ينزلها المصيفون . وان تنشىء ديواناً لفحص المصيفين طبياً وفرز كل مصاب بمرض معدٍ وارساله الى مستشفى الدكتورة ماري ادي في الشبانية . وان ترسل لجنة الى سويسرا واماكن الاصطياف في فرنسا لدرس الطرق التي يجرون عليها هناك لترغيب المصطافين في قضاء الصيف فيها. وعلى اهل الجبل اكرام ضيوفهم والابتعاد عن كل ما يشين سمعة البلاد وعدم غش الغريب النازل بين ظهرانيهم بل معاملتهُ معاملة مواطنهم

وقد طابت لنا الاقامة في زحلة وهي اكبر مدن لبنان كلها في تجارتها. وكروسها من احسن ما رأت العين وقد هاجر منها الالوف الى اميركا وعادوا منها اغنياء فبنوا الدور الفخمة . وزرنا محطة رياق الترجية منها وقد كانت للالمان في الحرب اشبه شيء بمحطة الواسطى في مصر يتفرع منها ثلاثة فروع لسكة الحديد فرع الشام وفرع حلب وفرع بيروت . وكان فيها مستودعات كبيرة من الذخيرة . وبعد معركة طول كرم جاءت اربع طيارات انكليزية والقت القنابل عليها فابتدأ الالمان والترك ينهزمون شمالاً

ومحطة رياق واقعة في سهل البقاع ومساحة هذا السهل ليست كبيرة كما يظن ومحاصلاتهُ لا تكفي نصف اهل لبنان . واذا كانوا يمونون بلبنان الكبير لبنان المعروف مضافاً سهل البقاع اليهِ دون غيرهِ فلا يكون لاهل الجبل ما يكفيهم في ايام الشدة وقد تحدث المجاعات كل سنة فيهِ ان لم تستورد المؤونة من الخارج

وبعد ان اقمت في زحلة شهرين عدنا الى مصر كما خرجنا منها اي بطريق البر

الدكتور يوسف غبريل

كانت الصورة الفوتوغرافية معلوية فظهر فيها هذا الخط في اعلى الصدر

مقتطف ابريل ١٩٣٠
امام الصفحة ٣٦٦